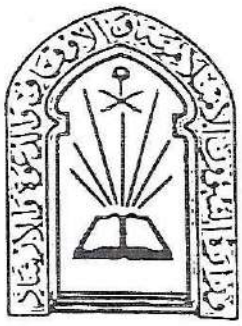

المملكة العربية السعودية
وزارة الشئون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير الميسر للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

الجزء التاسع عشر

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامّة لمسابقة القرآن الكريم الدَّوْلِيّة

ⓒ وزارة الشئون الاسلامية ، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باجودة ، حسن

التفسير البسيط للقرآن الكريم .- مكة المكرمة .

٣٣٦ ص ؛ ٢٥ سم

ردمك ٩- ٣٥٩ — ٢٩ — ٩٩٦٠

١- القرآن — التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٢٢/٢٦٥٣

رقم الإيداع : ٢٢/٢٦٥٣

ردمـك : ٩- ٣٥٩ - ٢٩- ٩٩٦٠

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

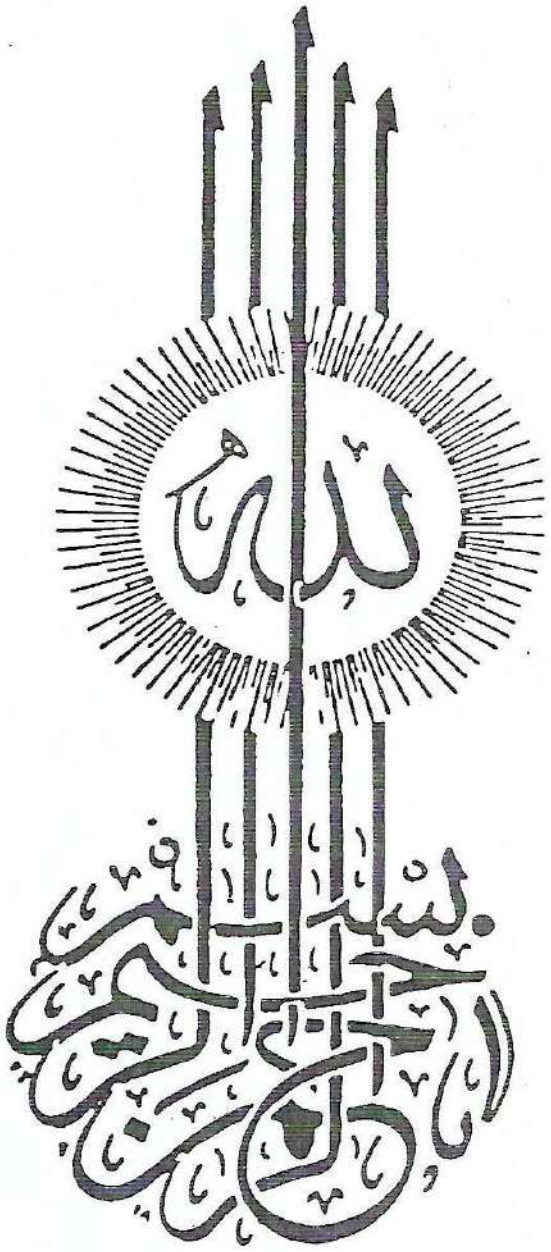
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء التّاسع عشر من القرآن الكريم، يغطّي تمام سورة الفرقان، وسورةَ الشّعراء، وجزءاً من سورة النّمل، وقد قمت بعمله على غرار الأجزاء الثّمانية عشر السّابقة. إنّ هذا الجزء التّاسع عشر، هو ميدان التفسير للمتسابقين، في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، مِنْ بين الحقول الخمسة للمسابقة، في مسابقة الملك عبد العزيز الدَّوْليّة الثّانية والعشرين، التى عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد برئاسة معالي وزيرها الشّيخ صالح بن عبد العزيز بن محمّد آل الشّيخ في أثناء الفترة من ١/٨/١٤٢١هـ حتّى ٩/٨/١٤٢١هـ الموافق ٢٨/١٠/٢٠٠٠م حتّى ٧/١١/٢٠٠٠م. وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال الّتي تمّت في مجال التفسير، في أثناء المسابقة الثانية والعشرين، علماً بأنّ ميدان المتسابقين في المسابقة الثّالثة والعشرين، إن شاء الله تعالى، هو الجزء العشرون من القرآن الكريم.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة الّتي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الّذي حرصت فيه كما حرصت في سابقيه، على أمورٍ أهمّها ثلاثة:

١ ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات .

٢ ـ أن أشير إلى الدّروس الّتي يمكن أن تستفاد.

٣ ـ أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه

سميعٌ مجيب.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتَهُ على الّذين من قبلنا. ربّنا ولا تُحَمّلْنا ما لا طَاقة لنا به. واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلىَ آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الاثنين ٢٦ / ٣ / ١٤١٩هـ
الموافق ٢٠/ ٧ / ١٩٩٨م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

أولاً..
تمام سورة الفرقان

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ
هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ
يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ
مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ۖ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ
عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ
خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ
أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ
فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ
شُكُورٗا ٦٢ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ
هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ
لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّو۟ا بِٱللَّغْوِ
مَرُّو۟ا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُو۟ا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّو۟ا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُو۟ا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى
لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

بين يدي التّفسير ..

(١)
((المستهزئون بطلب رؤية الله تعالى والملائكة لا يرجون لقاء الله تعالى ولهم عذابٌ أليم))
الآيات (٢١-٣١)

مّر بنا في تفسير الجزء الثّامن عشر صدر سورة الفرقان في قسمين، اشتمل أوّلهما على اتّهامات كفّار مكّة للقرآن الكريم، وكان الرّدّ على تلك الاتهامات على الفور، واشتمل آخرهما على اعتراضات لكفّار مكّة على الرّسول ﷺ واقتراحات، وكان الرّدّ أحياناً على الفور وأحياناً على التّراخي. ومن بين اقتراحات كفّار مكّة أن ينزل إليه ﷺ مَلَكٌ من السّماء يشهد أنّه عليه الصّلاة والسّلام رسول ربّ العالمين، فقد جاء في الآية الكريمة السّابعة على ألسنة الكافرين قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا﴾ وكان الرّدّ على هذا الاقتراح في أولى آيات الجزء التّاسع عشر، في الآية الكريمة الحادية والعشرين. قال عزّ من قائل : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا. لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيرا﴾ ومن البيّن أنّنا بصدد طلبٍ من الكافرين أن ينزل عليهم الملائكة أو أن يروا ربّهم جلّ وعلا عِياناً. وكأنّ الآيةَ الكريمة تترك طلبهم نزول مَلَكٍ إلى الرّسول ﷺ كما جاء في الآية الكريمة السّابعة، وتتحوّل إلى طلبين للكافرين من جنس الطّلب السّابق، ولكنّهما طلبان أكثر جراءةً دليلاً على استكبارهم وعتوّهم. وسبق أن وصفت الآية الكريمة الحادية عشرة المشركين بأنهم : ﴿كذّبوا بالسّاعة﴾ ويوصف الكافرون في الآية الكريمة الحادية والعشرين بأنّهم لا يرجون لقاء الله تعالى. وفي مقابل طلبهم نزول الملائكة عليهم وليس إلى النّبيّ ﷺ يوصفون بالاستكبار، وفي مقابل طلبهم رؤيةَ الله تعالى عِياناً يوصفون بالعتوّ الكبير والطّغيان الشّديد. وكأنّ وصفهم في صدر الآية الكريمة بالقول : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا﴾ في مقابل طلبهم نزول الملائكة إليه ﷺ في الآية الكريمة السّابعة. وكأنّ السّياق يجمع في قَرَنٍ بين نزول الملك إليه ﷺ ونزول

الملائكة عليهم ورؤيتهم الذات العلية عياناً. ويلاحظ تحوّل الاقتراحات الثّلاثة باطّراد من المستحيل إلى الّذى يفوق إحالةً وامتناعاً.

وكما أفاض القسم الثّانى من صدر السّورة الكريمة في وصف عذاب الكافرين أفاض هذا القسم الّذى نحن بصدده. إنّ المشركين المستهزئين بطلب رؤية الملائكة في الدّنيا حينما يرون ملائكة العذاب يوم القيامة تقول لهم الملائكة : ﴿لا بُشْرى يومئذٍ للمجرمين﴾ وهكذا تضيف الملائكة الكرام وصفاً جديداً للكافرين فهم مجرمون. ويجرى على لسان الكافرين في ردّهم على الملائكة يوم القيامة ما كان يجرى على لسانهم في الحياة الدّنيا حينما يتمنّون طرد الشّرّ ودفع الأذى. قال عزّ من قائل : ﴿ويقولون حِجْراً محجورا﴾ وهذا القول الّذى يجرى على ألسنة الكافرين هنا، وفي الآية الكريمة الثّالثة والخمسين : ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا﴾ وتلك الألفاظ والأقوال الّتى تأتى في العديد من آيات السّورة الكريمة ويجرى استعمالها على غرار استعمال العرب لها، كلّ ذلك من الأدلّة على أنّ القرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، وأنّه لم يلو للّغة العربيّة عنقا، وأنّه نهض بخصائص هذه اللّغة الشّريفة إلى أرحب الآفاق وأرفع الأجواء.

وبشأن القول على لسان الكافرين : ﴿حِجْراً محجورا﴾ وقفنا ملياً عنده من زاوية تطوّر الدّلالة وحاولنا أن نسير خطوةً فخطوةً مع رحلة مجموعةٍ من الألفاظ المشتقّة من الأصل اللّغويّ : «حجر» ممّا يأخذ بسببٍ من القول : ﴿حِجْراً محجورا﴾ وقد تبيّن أنّ الأصل اللّغويّ : «حجر» يدور حول معنى المنعة ثمّ الإحاطة. وكأنّ الألفاظ من هذا الأصل اللّغويّ : «حجر» الّتى تدلّ على المحسوسات والمعنويّات تدلّ على هذين المعنيين على التّوالى. وكأنّ هذه الألفاظ تستمدّ هذين المعنيين من أشهر الألفاظ المشتقّة من هذا الأصل اللّغويّ، أعنى لفظة «حَجَر» الّتى تدلّ على القطعة من الصّخر والجوهر الصُّلب المعروف. ولمّا كان الحَجَرُ معروفاً بقوّته أفادت الألفاظ المشتقّة الأخرى القوّة والمنعة. ولمّا كان الحجر

المادّة الّتي يُحاط بها المكان وكانت الأمكنة بطبعها آنذاك يغلب على حدودها الانحناء، وكان البناء المنحنى ذاته أشدّ قوّةً من غيره، ويتجلّى ذلك في بناء السّدود والعقود والأقواس وما إليها، أفادت الألفاظ المشتقّة الأخري الانحناء أو الاستدارة أو الإحاطة، يستوى في ذلك الألفاظ الدّالّة على المحسوسات والمعنويّات، ومنها الحَجْر بأن يُجعل حول المكان حجارة، والحِجْر وهو كلّ مكانٍ يحاط بالحجارة، ومن ذلك حِجْر الكعبة وحِجْر ثمود، والحُجْرة من البيوت معروفةٌ لمنعها المال. ومنها الحَجْر على السّفيه بمعنى منعه من التّصرّف في ماله، والحِجْر بمعنى العقل لأنّه يمنع من السَّفه، والحِجْر الفرس الأنثى لأنّها تصان ويضنّ بها، وهكذا. ومن أكثر الألفاظ دوراناً ومعنى لفظة الحَجْر بتثليث الحاء، وإنّ القول ﴿حِجْرا﴾ قد ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرّفة المنصوبة بأفعالٍ متروكٍ إظهارها نحو معاذ الله، أى عياذا بالله. لقد نزّل العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم القول : «حِجْراً» منزلة الاستعاذة، لأنّ المستعيذ طالبٌ من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقه. وكأنّ معنى القول : «حِجْراً» أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً. وقد جاء القول : «محجورا» تأكيداً لطلب طرد الأذى وصرف الشّرّ. ومن هنا جاء القول على لسان الكافرين يوم القيامة في الآية الكريمة : ﴿حجراً محجورا﴾ وهو القول الّذى كان يجرى على لسانهم في الدّنيا لدفع نازلة، ظنّاً منهم أنّ هذا القول للملائكة ينفعهم في الآخرة كما كان في الدّنيا، ودليلاً على إحباط الله تعالى أعمال القوم الصّالحة بمقياس الإسلام لفقدها شرط الإخلاص لله تعالى يتمّ استعارة جملة : ﴿وقدمنا﴾ وذلك في الآية الكريمة التّالية. قال تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا﴾ وجملة : «قدم» لغوياً تشير إلى هيئة قدوم صاحب السّلطان على من عصوا أمره وبطشه بهم. إنّ هذه الجملة هي الّتي تستعيرها الآية الكريمة في جنب مالك الملك الكبير المتعال الّذى أحبط أعمال الكافرين الصّالحة، وجعلها هباءً منثورا. إنّ الهباء الّذى يرى كالغبار في ضوء الشّمس من الكوّة لا فائدة منه ولا سلطة لمخلوقٍ عليه

فكيف به إذا كان منثورا. وفي مقابل عـذاب الكافرين ثواب المؤمنين الّذى هم خيرٌ مستقـراً ومكاناً، وأحسن مقيلاً وزماناً. وفي ذلك اليوم تنشقّ السّـماء عن الغمام. وفي ذلك الغمام ينزل الملائكة وفي أيديهم صحـائف أعمال العباد. إنّ المُلْك الحقّ في ذلك اليوم ثابتٌ لله تعالى مالك الملك الرّحمن الرّحيم. وكان ذلك اليوم صعباً على الكافرين. وفي ذلك اليوم لا يكفى الكافـر لفرط النّدم أن يعضّ أصابع النّدم ولكنّه يَعَضُّ على يديه ويقول يا ليـتنى اتّخذت مع الرّسول محمّدٍ ﷺ سـبيلاً إلى الهدى والرّشاد. يا ويلتى ليتنى لم أتّخذ فلاناً من البـشر خليلاً أسير في ركابه إلى مهاوى الرّدى. لقـد أضلّنى عن القرآن الكريم بعد أن جـاءنى على لسان المصطفى ﷺ. وكمـا خذل شـيطان الإنس خليله، خذل الشّـيطان الرّجيم وليّـه. وفي يوم القيـامة يشكو المصطفى ﷺ قـومه بأنّهم اتّخذوا القـرآن الكريم مهجـورا وجعلوه وراءهم ظِهْرياً. وبقـصد تسلية المصطفى ﷺ وتثـبيت فؤاده عليه الصّـلاة والسّلام تقول آخـر آيات القسم له عليـه الصّلاة والسّلام : وكـما جعـل الله تعالى لك يا محّـمد عدواً من المجرمين جـعل ذلك لكلّ النّبيّين السّابقين والمرسلين، وكـفاك يا محّمد بربّك هادياً يهديك إلى سبيل الرّشاد، ونصيراً لك على أعدائك.

(٢)

((الحكمة من نزول القرآن الكريم منجّماً، وللكافرين عذاب مقيم))

الآيات (٣٢ - ٣٤)

أشارت آخر آيات القسم السّابق إلى أنّ ربّ العزّة والجلال كما جعل لمحمّد ﷺ عـدواً من المجرمين جـعل لسائـر النّبيّين السّـابقين، وفي ذلك تثـبيتٌ لفـؤاد المصطفى ﷺ. وهذا التّثبيت صـرّحت به أولى آيات القسم الّذى نحن بصدده. إنّ كفّار مكّة يقولون هلاّ نُزِّل القرآن جملةً واحدةً كـما نزّلت الكتب السّماويّة السّابقة

كلّها. وتبيّن الآية الكريمة الحكمة من تنزيل الله تعالى القرآن الكريم مفرّقاً وذلك لتثبيت فؤاده ﷺ، ففي كلّ مرّةٍ ينزل جبريل عليه السّلام بشيءٍ من الوحي كأنّ كتاباً سماوياً جديداً قد أنزل. وحينما ينزل القرآن الكريم مفرّقاً يتمكّن المصطفى ﷺ من ترتيله ترتيلا، وقراءته بتروٍّ، وتدبّر معانيه بإمعان، والتّمشّى بهديه تباعاً. وإنّ اقتراح الكافرين نزول القرآن الكريم جملةً واحدةً، واعتراضهم على نزوله مفرّقاً مظهرٌ من مظاهر اندفاع الكافرين تجاه كلّ رأيٍ، واستجابتهم لكلّ ناعق، وعدم استقرارهم على رأيٍ ولا طلب. ومن مظاهر عدم استقرار الكافرين على رأي جعلهم مَثَل النّبيّ ﷺ مثل المسحور في هذه السّورة الكريمة ومثل السّاحر والكاهن والشّاعر والكاذب وما إلى ذلك في غيرها من السّور الكريمة. إنّ الكافرين لا يأتون المصطفى ﷺ بأيّ مَثَلٍ وشَبَه من تلك الأمثال والأشباه إلاّ جاء ربّ العزّة والجلال حبيبه المصطفى ﷺ بالحقّ في هيئة آي الذّكر الحكيم الّذى يُزْهق باطل الكافرين، وبالتّفسير الأحسن من كلّ تفسير، والبيان الأنصع، والحجّة البالغة.

ولمّا كان الكافرون قد أصرّوا على كفرهم حتّى لقوا الله تعالى فمعنى ذلك أنّهم لارتكابهم الشّرك، وهو الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى، سوف يحشرون إلى جهنّم. وإنّ هؤلاء الكافرين سوف يُحْشَرون ويُسْحبون على وجوههم إلى جهنّم. إنّ مكانهم شرّ مكان، وإنّ سبيلهم وهو الكفر أضلّ سبيل. وقد أفضى بهم كفرهم إلى أسوأ غايةٍ وشرّ مصير.

(٣)

((الكافرون لا يعتبرون بكلّ آيات الله تعالى، ويفرحون بشركهم، وهم أضلّ من الأنعام))

الآيات (٣٥ - ٤٤)

لم ينتفع كفّار مكّة من آي الذّكر الحكيم الّتى تنزل تباعاً على المصطفى ﷺ،

بل كان كلٌّ من القرآن الكريم والرّسول العظيم غرضاً لاعتراضات الكافرين واتّهاماتهم. وفي هذا القسم الّذى نحن بصدده يتأكّد عدم انتفاع الكافرين بآيات الله تعالى بأنواعها، ويتبيّن فرحهم بشركهم، لأنّهم عطّلوا عقولهم، فهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا. إنّ السّياق يذكر عدداً من الجماعات الّتى دمّرها الله تدميراً بسبب تكذيبها رسلها. وقد ظهر ترتيب الرّسل في نظامٍ بديع. لقد ابتدأ السّياق بموسى وهارون عليهما السّلام بسبب قوّة الشّبه بين ملابسات دعوة كلٍّ من موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام. ومن أوضح أوجه الشّبه أنّ كلاًّ منهما من أولى العزم من الرّسل الخمسة، وآتاه الله تعالى كتاباً سماوياً، هذا إلى تعنّت كلٍّ من الجماعتين. لقد آتى الله تعالى موسى عليه السّلام التّوراة، وجعل معه أخاه هارون عليه السّلام وزيرا، وأمرهما بالذّهاب إلى فرعون وقومه. لقد دمّرهم الله تعالى تدميراً بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى. ثمّ راعى السّياق التّرتيب التّأريخيّ للأقوام ابتداءً بقوم نوحٍ عليه السّلام أوّل المرسلين، ومروراً بعادٍ وثمود وأصحاب الرّس، وإشارةً إلى ما بين عادٍ وأصحاب الرّسّ من أقوام. ولمّا كانت ثمود يمرّ كفّار مكّة بآثارها، ولكنّها ذُكرت مع عاد، وكانت قرى قوم لوطٍ يمرّ كفّار مكّة بها وبآثار القوم، لذا فقد كان قوم لوطٍ آخر الأقوام الّذين تحدّث عنهم السّياق. وكما لم ينتفع الكافرون بآي الذّكر الحكيم ولم يأخذوا العبرة ممّا حلّ بالمكذّبين السّابقين من دمار، كذلك هم لم ينتفعوا من تنبيههم إلى أنّهم يمرّون بقرى قوم لوطٍ عليه السّلام صباحاً ومساءً، فعليهم أن يعتبروا بما حلّ بهم من عذاب، بسبب تكذيبهم لوطاً عليه السّلام، وإتيانهم الفاحشة الّتى ما سبقهم إليها أحدٌ من العالمين. إنّ السبب الّذى جعل القوم لا يعتبرون أنّهم لا يرجون النّشور ولا يؤمنون بالبعث. بل إنّ كفّار مكّة الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم إذا رأوا المصطفى ﷺ يستهزئون به ويقولون في احتقار: ﴿أهذا الذى بعث الله رسولا﴾! لقد كاد يضلنا عن آلهتنا الّتى نعبدها ويحملنا على توحيد الله تعالى لولا أن صبرنا على عبادة الأصنام والأوثان! إنّ القوم سوف يعلمون حين يرون العذاب يوم القيامة أنهّم هم الأضلّ

سبيلا.

ولا يكاد ينتهى العجب من ذلك الّذي اتّخذ ما يهواه معبوده الّذى يشركه مع الله تعالى في العبادة. أفأنت تكون يا محمّد عليه حفيظاً ووكيلا؟ إنّ عليك البلاغ وحده، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد. أم أنّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان تحسب أنّ أكثر الضّالّين عن سواء السّبيل يسمعون سماع تدبّر ويستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً بشأن ما يسمعون ويبصرون. ما هم إلاّ كالأنعام والبهائم، بل هم أضلّ سبيلاً من الأنعام والبهائم الّتى لا عقل لها، والّتى تندفع بغريزتها عن الشّرّ إلى الخير. أمّا الكافرون المكلّفون فإنّهم يندفعون عن الخير إلى الشّرّ!.

(٤)

((الله تعالى خالق كلّ شيء ومدبّره، فهو المستحقّ وَحْدَه أن يُعبَد))

الآيات (٤٥-٦٢)

صرّف الله تعالى في القرآن الكريم من ضروب القول لهداية النّاس إلى صراط العزيز الحميد. وبشأن كفّار مكّة في المقام الأوّل، كان حديث القسم السّابق عن الأمم الّتى دمّرها الله تعالى تدميرا، بقصد أن يعتبر الكافرون، وقد تأكدّ أنّهم أضلّ من الأنعام سبيلا. وفي هذا القسم يتحوّل الحديث من أجل الغاية ذاتها إلى بعض مظاهر قدرة الحقّ جلّ وعلا المطلقة في مجالي الخلق والتّدبير. يبدأ السّياق بسؤال المصطفى ﷺ وكلّ إنسان: ألم تر إلى لطيف صنع ربّك كيف مدّ الظّلّ قبل طلوع الشّمس ولو شاء لجعله ساكناً غير متحرّك ولكنّه لم يشأ فلم يفعل، ثمّ جعل عزّ وجلّ الشّمس بعد طلوعها دليلاً على الظّلّ بالنّهار، ثمّ قبض عزّ وجلّ إليه الظّلّ بعد الغروب قبضاً يسيراً هيّناً لطيفا. وبذهاب الظّل بعد الغروب يحلّ اللّيل الّذى يتحدّث السّياق عنه وعن النّهار. فالله تعالى جعل لنا اللّيل لباساً وستراً لنا بظلامه، وجعل النّوم سباتاً وراحةً لنا، وجعل النّهار نشوراً وبعثاً لنا للعمل بعد

الموت الأصغر أعني النّوم. إنّ الإنسان يموت ويُبْعث بعدد مـرّات نومه واستيقاظه. وكفى بالنّوم والموت واعظا. ومن ثمرات اختلاف اللّيل والنّهار أبخرة الماء الصّاعدة إلى طبـقات الجـوّ العليا. إنّ الله سـبحـانه وتعالى هو وحـده الّذى أرسل الرّياح مبشّرات بين يدي رحمته عزّ وجلّ بالمطر. والله تعالى أنزل من السّماء ماءً طهوراً، طاهراً في نفسه مطهّـراً لغيـره، من أجل أن يحـيى عزّ وجلّ بذلك الماء العـذب الفرات مكـانـاً مَـيْتاً، ويمكّن بعض خلقـه كالأنعام والنّاس مـن الانتـفاع بـه وقت الحاجة.

وإذا كان الماء الـنّازل من السّمـاء عماد غـذاء الأبدان، فإنّ القـرآن الكريم، الموحى به من السّماء، عـماد غذاء الأرواح. إنّ الله سبحانه وتعـالى صرّف القرآن الكريم ونوّع طرائق أسلوبه بين النّاس، من وعـد ووعيد وقصصٍ وأمـثالٍ وأحكام وما إلى ذلك، من أجل أن يعتـبروا فأبى أكثر النّاس إلاّ بقاءً على شـديد كفرهم. وإنّ الله تعالى لو شاء لبعث في كلّ قرية نذيراً ولكنّه عزّ وجلّ لم يشأ فلم يفعل، إنّما شاء أن تكون الرّسالة الخاتمة واحدة الرّسول العظيم وواحدة القرآن الكريم. إنّ على المصطفى ﷺ ألاّ يطيع الكافرين، وأن يجاهدهم جهاداً كبيراً بالقرآن الكريم، جيش الإسلام الأكبر وسلاحه الأعظم.

والله سبـحانه وتعـالى هو الّذى أرسل البحـرين، الماء العذب الفـرات وليد الأبخرة المتـحوّلة عن الماء المِلْح أساسـاً، والماء المِلْح الأجاج، وجعل بين البـحرين حاجـزاً وبرزخاً ومانعـاً يمنع كلّ واحدٍ منهـما أن يَبْغِيَ عـلي الآخر أو أن يطغى، وكأنّ كلّ واحدٍ منهما يتعوّذ من صـاحبه الّذى جرى على ألسنة الكافرين في الحياة الأولى على سبيل الحقيقة.

وفي حديث السّياق عن خلق الإنسـان يُنْظَر إليه من زاوية الجوّ المائيّ الغالب على مجموعةٍ من الآيات الكريمات. فالله سبحانه وتعالى خلق من الماء بشراً، هم ذرّيّة آدم عليه السّـلام، فجعله عزّ وجل نسـباً من جهة الذّكـورة في المقام الأوّل، وصهراً من جهة الأنوثة في المقام الأوّل. وكان ربّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان على

خلق الذّكر والأنثى قديرا.

وعلى الرّغم من كلّ هذه الحجج البالغات يصرّ الكافرون على أن يعبدوا من دون الله تعالى ما لا ينفعهم لو عبدوه، ولا يضرّهم لو هجروه. وكان الكافر ظهيراً للشّيطان الرّجيم ومعيناً له على ربّه جلّ وعلا الرّحمن الرّحيم.

ويتحوّل السّياق إلى تسلية المصطفى ﷺ ويقول له : ما أرسلناك يا محمّد إلاّ مبشّراً بالجنّة من أطاعك ونذيراً بالنّار من عصاك. ويلاحَظُ جمع السّياق في نسق بين التّبشير والإنذارَ، تنبيهاً إلى جمع السّياق بينهما مستقبلاً بعد أن كاد الحديث يكون عن الإنذار وحده تمشّياً مع صفة الإنذار الّتى جاءت في أولى آيات السّورة الكريمة. ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للمشركين : ما أسألكم على دعوتى إلى الله تعالى من أجر، لكن من شاء منكم أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً بالإنفاق في سبيله جلّ وعلا فإنىّ أعينه على ذلك. وتوكّل أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم على الله تعالى الحيّ الّذى لا يموت وسبّح متلبّساً بحمده. وكفاك يا محمّد وحسبك بالحيّ الّذى لا يموت خبيراً بذنوب عباده معاقباً عليها. إنّه الحيّ الّذى لا يموت الّذى خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، ثمّ استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته. إنّه رحمن الدّنيا والآخرة فاسأل يا محمّد بالرّحمن خبيراً بخلقه.

وتمادياً من المشركين في الغيّ وإصراراً علىٰ الضّلال حينما يقال لهم اسجدوا للرّحمن يقولون متظاهرين بعدم الفهم ومُدَّعين الجهل بالمأمورين بالسّجود له : ﴿وما الرّحمن﴾ وتمادوا في كفرهم حينما سألوا في إنكار أن يأمرهم المصطفى ﷺ بالسّجود للرّحمن، وحينما ازدادوا نفوراً بقلوبهم وفراراً بأجسادهم.

ويعود السّياق إلى لفت الانتباه إلى بعض مخلوقات الله تعالى فيقول : تقدّس وتكاثر خير الله تعالى الّذى جعل في السّماء بروجاً هي منازل الكواكب السّبعة السّيّارة، وجعل فيها الشّمس المضيئة والقمر المنير. والله سبحانه وتعالى هو الّذى جعل اللّيل والنّهار يخلف كلّ منهما الآخر لمن أراد أن يتذكّر نعم الله تعالى

ويبادر إلى شكره جلّ وعلا بإفراده وحده لا شريك له بالعبادة. وكفى بالجديدين، اللّيل والنّهار، واعظاً.

(٥)

((نعوت عباد الرّحمن))

الآيات (٦٣ - ٧٧)

نصّت أولى آيات السّورة الكريمة على أنّ الله تعالى جلّت قدرته قد نزّل القرآن الكريم على محمّد ﷺ ليكون عليه الصّلاة والسّلام للعالمين نذيرا. وقد صُبغت الآيات الكريمات بعد ذلك بصفة النّذارة غالباً. وجمعت الآية الكريمة السّادسة والخمسون بين البشارة والنّذارة. قال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيرا﴾ وقد صبغت الآيات الكريمات بعد ذلك بصفتي البشارة والنّذارة. وفي آخر أقسام السّورة الكريمة، الّذى يتحدّث عن نعوت عباد الرّحمن، أولئك العباد الّذين هم الثّمرة اليانعة لمنهج القرآن الكريم التّربويّ، تجمع الآيات الكريمات بين البشارة والنّذارة معاً. وتتجلّى البشارة في الحديث عن النّعوت المرغوب فيها، وتتجلّى النذارة في الصّفات المرغوب عنها. وقد تجلّت النّذارة في أوْجها في آخر آيات السّورة الكريمة الّتى تهدّد كفّار مكّة ومن شاكلهم من المصّرين على الكفر بأنّ عذاب الكافرين خالدٌ يوم القيامة في جهنّم.

وحينما ننظر إلى نعوت عباد الرّحمن نتبيّن أنّها تشمل كلاًّ من الأخلاق والسّلوك والمعاملة. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُفْصَلَ على الحقيقة بين الأخلاق والسّلوك والمعاملة، لأنّ السّلوك والمعاملة يتلوّنان بلون الخُلُق. ونحن نَفْصِلُ نظريّاً بين الأخلاق والسّلوك والمعاملة، ونتبيّن أنّ أكثر نعوت عباد الرّحمن في مجال الأخلاق، وأنّ الأخلاق العظيمة لعباد الرّحمن ثبتت لهم عن طريق تحلّيهم بفضائل الأخلاق، وتخلّيهم عن رذائلها.

يبدأ السّياق بنعت عباد الرّحمن بالمشي على الأرض هَوْناً لغاياتهم السّامية، وهذا ضربٌ من السّلوك، وبإجابتهم من يجهل عليهم في الخطاب إجابةً لطيفةً

وقولهم له قولاً كريماً يسلم به دينهم وعرضهم، وهذا ضربٌ من المعاملة. وهذان الضّربان من السّلوك والمعاملة العظيمين نتيجةٌ طبيعيّة لخلق عباد الرّحمن العظيم الّذى يفيض السّياق في الحديث عنه. إنّهم يقومون أكثر اللّيل ساجدين لله تعالى قائمين. وحينما يقضى عباد الرّحمن اللّيل يصلّون النّوافل فذلك دليلٌ على محافظتهم على صلاة الفرض. والمعروف أنّ الصّلاة عماد الدّين، وأن إقامتها دليلٌ على إقامة سائر الأركان. وعلى الرّغم من اجتهاد عباد الرّحمن في العبادة وإخلاصهم لله تعالى في أدائها هم مشفقون ألاّ يتفضّل الله تعالى بقبولها، وألاّ يدخلهم الجنّة. ومن لا يدخل بفضل الله تعالى الجنّة، يدخل النّار بعدله، لذا فإنّ عباد الرّحمن يدعون الله تعالى من أعماقهم أن يصرف عنهم عذاب جهنّم. إنّ عذاب جهنّم كان ملازماً من يستحقّه، وإنّ جهنّم ساءت مكان استقرارٍ وإقامة.

ولمّا كانت الصّلاة والزّكاة متلازمتين في القرآن الكريم فيما يزيد على الثّمانين موضعاً، وكانت الصّلاة عبادةً يتجه بها العبد مباشرةً إلى الله تعالى، وكانت الزّكاة عبادةً يتجه بها العبد إلى الله تعالى بواسطة أخيه الإنسان. وكانت الزّكاة ذات علاقة بالمال، فإنّ السّياق يتحوّل إلى الحديث عن إنفاق هذا المال. إنّ عباد الرّحمن إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ويبذّروا، ولم يَقْتُرُوا ويبخلوا، وكان إنفاقهم وسطاً واعتدالاً بين التّبذير والتّقتير. والمعروف أن دين الإسلام دين الوسطيّة في كل شئونه، وأنّه ينهى عن الإسراف مطلقاً. لقد نهت الآية الكريمة الحادية والثّلاثون من سورة الأعراف عن الإسراف في الأكل والشّرب. قال تعالى : ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. إنّه لا يحبّ المسرفين﴾ كما نهت الآية الكريمة الحادية والأربعون بعد المائة من سورة الأنعام عن الإسراف في الأكل وفي الصّدقة. قال تعالى : ﴿وهو الّذى أنشأ جنّاتٍ معروشاتٍ وغَيْرَ معروشاتٍ والنّخل والزّرع مختلفاً أُكُلُهُ والزّيتون والرّمّان متشابهاً وغير متشابهٍ. كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا. إنّه لا يحبّ المسرفين﴾.

ومن البيّن أنّ هذه المجموعة من النّعوت يغلب عليها التّحلّى، في حين

يغلب على الصّفات اللاّحقة التّخلّي. وحينما ينفى السّياق عن عباد الرّحمن الصّفات السّيّئة، يثبت لهم النّعوت الحسنة. إنّ عباد الرّحمن لا يدعون مع الله تعالى إلهاً آخر، فهم يعبدون الله تعالى وحده لا شريك له. وهم لا يقتلون النّفس الّتي حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحقّ فهم يمتثلون لأوامر الله تعالى ويطبّقون أحكامه، وهم لا يزنون، فهم من ناحيةٍ يستعففون عن الزّنا حتّى يغنيهم الله تعالى من واسع فضله، ويُنْكحون من لا زوج له من الجنسين، وهم من ناحيةٍ أخرى لا تأخذهم رأفةٌ في دين الله تعالى وتطبيق حكمه جلّ وعلا في كلٍّ من الزّاني والزّانية.

ويبادر السّياق إلى تقرير عذاب الله تعالى الأليم لكلّ من أشرك وقتل وزنى، وتقرير قبول الله تعالى توبة التّائبين من ارتكاب الذّنوب جميعها، بل وتبديل الله تعالى سيّئات الحياة الدّنيا لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً حسناتٍ في الآخرة. وفي ذلك حثٌّ على التّوبة إلى الله تعالى توبةً نصوحا.

ومن كبائر الذّنوب الّتي لا يرتكبها عباد الرّحمن شهادة الزّور. وإنّ الإشارة إلى شهادة الزّور بعد الشرك والقتل والزّنا دليلٌ على أنّ شهادة الزّور من كبائر الذّنوب الّتي يدلي بها الظّالمون.

وشهود الزّور يشمل كذلك مجالس اللّهو والباطل. إنّ عباد الرّحمن بعيدون عن شهود الزّور بأنواعه، وهم إذا امرّوا مضطّرين باللّغو مرّوا سريعاً مرور الكرام، وبذلك يسلم لهم دينهم وعرضهم. ومن البيّن أنّ مرّ عباد الرّحمن على مجالس اللّغو مرّ الكرام من جنس قولهم للجاهلين والسّفهاء قولاً يسلم به دينهم وعرضهم. إنّ سلوكهم نظيف، وقولهم للآخرين لطيف.

وامتداداً لخوف عباد الرّحمن ألاّ يتفضّل الله تعالى عليهم بقبول أعمالهم الصّالحة هم ينتفعون بالتّذكير، ويخرّون على آيات الله تعالى ساجدين سامعين مطيعين، فهم ليسوا من الّذين يستنكفون من التّذكير ويستكبرون، ويخرّون على آيات الله تعالى صمّاً وعميانا. وهكذا يكون التّواضع سجيّةً في عباد الرّحمن.

وعباد الرّحمن لهم في المصطفى ﷺ، الّذى حبّب الله تعالى له فيما حبّب من دنيا النّاس، النّساء، لهم في المصطفى ﷺ أسوةٌ حسنة. إنّهم تكون لهم بفضل الله تعالى الزّوجات والذّرّيّة. وإنّهم يدعون الله تعالى من أعماقهم، أن يهبهم الله تعالى من أزواجهم وذرّياتهم قرّة أعين، وانشراح صدر، وبهجة نفس، بسبب الصّلاح والتقوى، وبأن يجعلهم الله تعالى أئمّة للمتّقين، كي تتّسع دائرة التّقوى.

إنّ عباد الرحمن يجزيهم الله تعالى يوم القيامة أعالي الجنّة، بسبب صبرهم على الطّاعات والبلاء وعن المعاصى، وتدخل عليهم الملائكة من كلّ الأبواب داعيةً لهم بالنّعيم المقيم والسّلام الدّائم. إنّ عباد الرّحمن خالدون في الجنّة الّتى حَسُنَتْ مكان استقرار وموضع إقامة.

ولمّا كان كفّار مكّة لا يزالون مصّرين على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى، فإن آخر آيات السّورة المكيّة الكريمة تأمر المصطفى ﷺ، استمراراً لتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام، أن يقول لأولئك الكافرين : إنّ ربيّ جلّ وعلا لا يعبأ بكم ولا يكترث لولا عبادتكم الله تعالى وحده لا شريك له. ولمّا كنتم قد كذّبتم رسول الله تعالى الّذى أنزل عليه القرآن الكريم وأصررتم على كفركم فإنّ عذابكم يوم القيامة في نار جهنّم سيكون ملازماً لكم.

التفسير

(١)

(المستهزئون بطلب رؤية الله تعالى والملائكة لا يرجون لقاء الله تعالى ولهم عذابٌ أليم)

الآيات (٢١ - ٣١)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾

وقال الّذين لا يرجون لقاءنا : الرّجاء ظنّ يقتضى حصول ما فيه مسرّة[١].

لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا : هلاّ أنزل الله علينا ملائكته فتخبرنا أنّ محمّداً محقٌّ فيما يقول وأنّ ما جاءنا به صدق، أو نرى ربّنا فيخبرنا بذلك[٢].

لقد استكبروا في أنفسهم : لقد استكبر قائلو هذه المقالة في أنفسهم وتعظّموا[٣] والاستكبار أن يتشبّع فيُظْهر من نفسه ما ليس له[٤].

وعتوا عتواً كبيرا : وتجاوزوا في الاستكبار بقيلهم ذلك حدّه[٥] والعتوّ النّبوّ عن الطاعة، يقال : عتا يعتو عتواً وعِتيّا[٦] وجاء المصدر هنا عتواً لأنّ عتا من ذوات الواو فأخرج مصدره على الأصل بالواو. وقيل في سورة مريم[٧] : ﴿وقد بلغت من الكبر عتيّا﴾ وإنّما قيل ذلك كذلك لموافقة المصادر في هذا الوجه جمع الأسماء كقولهم : قعد قعوداً وهم قومٌ قعود. فلمّا كان ذلك كذلك وكان العاتى يجمع عتيّاً بناءً على الواحد جعل مصدره أحياناً موافقاً لجمعه وأحياناً مردوداً إلى أصله[٨].

بما أنّ الآية الكريمة امتدادٌ لاقتراحات مشركى مكّة واعتراضاتهم على المصطفى ﷺ الّتى اشتملت عليها السّورة الكريمة في نهاية الجزء الثّامن عشر، فإنّا

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رجا» ١/ ٢٥٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «كبر» ٢/ ٥٤٥.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عتا» ١/ ٤١٨.

(٧) الآية ٨.

(٨) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ٢.

نـــودّ أن نذكّر بالأمـور الضّروريّة مـــن أجل الرّبط بـــين آيات الـسّورة الكـــريمة في الجزءين.

لقد كانت اتّهامات مشركي مكّة في الـقسم الأوّل من السّورة الكريمة متّجهةً إلى القرآن الكريم وذلك في الآيتين الكريمتين الـرّابعة والخامسة، وكـان الرّدّ عليهم على الفور في الآيتين الكريمتين الرّابـعة والسّادسة. قال عـزّ من قائل[1] : ﴿وقال الّذين كفروا إن هذا إلاّ إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً. وقالوا أساطيـر الأوّلين اكتتبـها فهي تملى عليه بكرةً وأصـيلا. قل أنزله الّذى يعلم السّرّ في السّماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيما﴾.

وكانت اعتراضات المشركين واقـتراحاتهم في القسم الثّاني من السّورة الكريمة متّجهـةً إلى شخص الرّسول الكريم صلوات الله تعالى وسلامـه عليه. وقد عرض القـرآن الكريم اعـتراضـات المشـركين واقـتراحـاتهم في أسلوبه المـعجـز. وتدور الاعتراضات والاقتراحات حول كون محمّد ﷺ واحداً من البشر وليس واحداً من الملائكة، والمفروض في الرّسـول حسب زعمـهم أن يكون واحداً من الملائكة. ولمّا كان محمّدٌ واحداً من البشر فينبـغى أن ينزل معه مَلَكٌ من السّماء يشهد بأنّه رسول ربّ العالمين. وإذا كان الـرّسول واحداً من البشر فـلا أقلّ من أن يكون واحداً من عظماء المدينتين أو القريتين مكّة والطّائف. وإلى هذا المعنى أشار قوله عزّ من قائل في سورة الزّخرف[2] ﴿وقالوا لـو نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القـريتين عظيم﴾ ومقياس العظمة في نظر كفّار مكّة ومن إليهم الثّراء. وبشأن محمّد ﷺ، كما ينكر كفّار مكّة عليه كونه بشـراً وليس ملكاً واضطراره لأن يأكل الطّعام ويتخلّص كسائر البشر من الفضلات، هم ينكرون عليه ﷺ فقره فهو يمشى في الأسواق سعياً وراء لقمة العيش وطلباً للرّزق، وهو لم يُلْقَ إليـه كنزٌ من السّماء كى يستغنى عن المشي في الأسواق وطلب الرّزق. وكفّار مكّة وراء ذلك يـتّهمون المصطفى ﷺ بأنّه رجلٌ

(١) سورة الفرقان ٤-٦.

(٢) الآية ٣١.

مسحورٌ مغلوبٌ على قواه العقليّة بقوىً خارجيّة شريّرة، فَمَثَلُهُ عليه الصّلاة والسّلام مَثَلُ المسحور، ومَثَلُ السّاحر والكاهن والشّاعر والكاذب ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾.

إنّ من الاعتراضات والاتّهامات ما كان الرّدّ عليه على الفور على نحو ما تمّ بشأن اتهّامات المشركين للقرآن الكريم والرّدّ عليهم في القسم السّابق. لقد جاء بشأن اتّهامه ﷺ بأنّه رجلٌ مسحورٌ والرّدّ على هذا الاتّهام وما شاكله قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ وجاء في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّامنة مجموعةٌ من الاعتراضات، في أسلوب القرآن الكريم المعجز، كما جاء الرّدّ عليها على التّراخي، في أسلوب القرآن الكريم المعجز كذلك. وإنّه بالنّظر إلى الرّدود على الاعتراضات أو الاقتراحات جميعها يمكن القول : إنّ الرّدّود أعادت ترتيب الاعتراضات أو الاقتراحات وفق حكمة جليلة يمكن أن يقال عنها إنّها قدّمت الرّدّ على أسهل الاعتراضات وأوضحها سذاجةً، ثمّ تحوّل الرّدّ إلى ما احتاج من القوم إلى شيءٍ من تدبّرٍ وتفكّر. لقد جاءت الاعتراضات أو الاقتراحات في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وقالوا مالِ هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أُنْزل عليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا. أو يُلقى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكل منها﴾.

إنّ الاعتراض بكون الرّسول ﷺ يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق يكون الرّدّ عليه بشقّيه في آخر آيات الجزء الثّامن عشر، أي في الآية الكريمة العشرين. قال تعالى : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق﴾.

أمّا الاعتراض بإنزال المَلَك إليه ﷺ نذيراً معه فإنّه يتأخّر الرّدّ عليه، وعلى نحوٍ من الأنحاء، في أولى آيات الجزء التّاسع عشر، وهي الآية الكريمة الّتي نحن

---

(١) سورة الفرقان ٨و٩.

بصـــــددها.

وأمّـا الاقتـراح بأن يُلْقَى إليه ﷺ كنزٌ أو تكون لـه جنّةٌ يأكل منها وبالتّـالى يستغنى عن السّـعى وراء لقمة العيش فإنّ الرّدّ يكـون في الآية الكريمة العاشرة في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿تبارك الّذى إن شاء جـعل لك خيراً من ذلك جنّات تجرى من تحتـها الأنهـار ويجعل لك قـصورا﴾ وبذلك يكون ترتيب الرّدود علـى النّحو التّالى :

١ ـ الرّدّ الفوريّ على اتّهام المصطفى ﷺ بأنّه رجلٌ مـسحور. وهذا الاتّهام هو آخر اعتراضات الآيتين الكريتين السّابعة والثّامنة.

٢ ـ الرّدّ على إنكارهم عليه ﷺ أكل الطّعـام والمشي في الأسواق وهما أوّل الاعتراضات، وذلك في الآية الكريمة العشرين.

٣ ـ الرّدّ على اقتـراح نزول الملك شاهداً على أن مـحمـداً ﷺ رسول ربّ العالمين وذلك في الآية الكريمة الحادية والعشـرين الّتى نحن بصددها والّتى يبدأ بها الجزء التّاسع عشر.

٤ ـ الرّدّ على إلقاء الكنز إليه ﷺ أو أن تكون له جنّةٌ يأكل منها وبالتّالى لا يضطّر للمشي في الأسواق طلباً للرّزق وذلك في الآية الكريمة العاشرة.

وبعـد هذا الرّبط الضّـروريّ بين الجـزءين نعود إلى الآيـة الكريمة الّتى نحن بصددها والّتى قلنا إنّها، على نحوٍ من الأنحـاء، ردٌّ على اقتراح الكافرين أن ينزل إليه ﷺ ملكٌ على نحـو ما جاء في الآية الكريمة السّابعـة : ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكـون معه نذيرا﴾ فلـنبدأ بتبـيين معنى الآية الكـريمة. وقال كفّـار مكّة الّذين لا يرجون لـقاء الله تعالى يـوم القيامـة ولا يعملون الـصّالحات من أجل ذلـك اليوم المجموع له النّاس المشـهود الّذى يثاب فيه الطّائع ويعاقب فـيه العاصى : هلاّ أنزل علينا نحن الملائكة تشـهد أنّ محـمّداً رسول ربّ العـالمين، أو نرى ربّنا جلّ وعلا عِياناً فيـخبرنا أنّ محمّداً رسـوله جلّ وعلا. لقد استكبر كفّـار مكّة في أنفسهم، وتجاوزوا حقـيقة أقدارهم بعـيداً، بباعث الفخـر والاختيال على عـباد الله تعالى،

وعتوا عتواً كبيراً، وطغوا طغياناً شديدا.

وإنّه بالمقارنة بين اعتراض الكافرين : ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيرا﴾ وبين الرّدّ عليهم في الآية الكريمة الّتى نحن بصددها، نتبيّن أنّ الآية الكريمة ترّد على الاعتراض بطريقٍ غير مباشر وتضيف الجديد والعديد من المعانى، وبذلك يبدو الرّدّ في الآية الكريمة قديم المعنى وجديده في آنٍ واحد. أمّا كون الرّدّ قديم المعنى فلأنّه يرتبط بفحوى الاعتراض المتعلّق بالمَلَك في الآية الكريمة السّابعة. وأمّا كون الرّدّ جديد المعنى فلأنّه يضيف الجديد من المعانى. إنّ كفّار مكّة المعترضين المقترحين لا يرجون لقاء الله تعالى ولا يعملون لما بعد الموت. وإذا كانوا من قبل قد اقترحوا أن ينزل المَلَك إليه ﷺ فإنّهم ههنا يقترحون أن تنزل عليهم الملائكة. إنّ هنالك ملكاً واحداً وإنّ ههنا ملائكة. وإنّ هنالك اقتراح نزول الملك إليه ﷺ. وإنّ ههنا اقتراح نزول الملائكة عليهم. بل إنّ اقتراح نزول الملائكة عليهم كان موطّئاً لاقتراحٍ لا مجال وراءه لأيّ حمقٍ أو جنون، وهذا الاقتراح مفاده أن يرى كفّار مكّة ربّهم جلّ وعلا جهرةً وعِياناً يشهد بأنّه جلّ وعلا قد بعث محمّداً ﷺ رسولاً له جلّ وعلا. وهكذا يوصف القوم بأنّهم لا يرجون لقاء الله تعالى بين يدي الاقتراحين اللّذين يعتبران امتداداً للاقتراح في الآية الكريمة السّابعة، وتطوّراً لهما، بحيث يبدو التّحوّل المطّرد في الجراءة كلّ مرّة يتمّ فيها التّحوّل من اقتراح إلى الّذى يليه.

ولمّا كنّا في الآية الكريمة بصدد اقتراحين يُبْنى آخرهما على أوّلهما، فإنّا في الرّدّ بصدد جزئيّتين كريمتين تبنى أخراهما على أولاهما، وتدحض كلٌّ منهما الاقتراح الّذى يقابلها. هذان هما الاقتراحان : ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا﴾ وهذان هما شقّا الرّدّ : ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا﴾.

ومن البيّن أنّ الرّدّ بشقّيه وصف للكافرين بالاستكبار الشّديد، والعتوّ الكبير. وهذا الوصف ذو الشّقّين مهّد له في صدر الآية الكريمة بوصفٍ من جنسه لهؤلاء الكافرين : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا﴾ وإذا كان الوصف بالاستكبار

في مقابل اقتراح الكافرين نزول الملائكة عليهم، وكان الوصف بالعتوّ في مقابل اقتراحهم أن يروا ربّهم جلّ وعلا عياناً، فكأنّ صدر الآية الكريمة : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا﴾ في مقابل اقتراح الكافرين في الآية الكريمة السّابعة : ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيراً﴾ وبذلك تكون الاقتراحات الثّلاثة للكافرين قد قابلها في التّرتيب ذاته ثلاثة أوصاف للكافرين.

وإنّ وصف كفّار مكّة بأنّهم لا يرجون لقاء الله تعالى : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا﴾ امتداد لوصف السّورة الكريمة لهؤلاء الكافرين بعددٍ من الصّفات السّيّئة. جاء عنهم في الآية الكريمة الرّابعة القول : ﴿وقال الّذين كفروا﴾ وجاء عنهم في الآية الكريمة الثّامنة القول : ﴿وقال الظالمون﴾ وجاء عنهم في الآية الكريمة الحادية عشرة القول : ﴿بل كذّبوا بالسّاعة﴾.

وكأن الآية الكريمة قد ضربت الذّكر صفحاً عن اقتراح الكافرين أن ينزل إليه ﷺ ملكٌ فيكون معه نذيراً، وكأنّها في الوقت ذاته تكتفي رداً على اقتراحهم بوصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله تعالى، ثمّ كان اتّخاذ الآية الكريمة الاقتراح في الآية الكريمة السّابعة توطئةً لذكر اقتراحين من جنس الأوّل، الّذى كان توطئةً للثّاني، وكذلك كان الثّانى توطئةً للثّالث.

وهكذا تكون المعانى جديدةً قديمة، وهكذا يعرض القرآن الكريم اقتراحات الكافرين ويكرّ عليها بالنّقض في أسلوبه المعجز دائماً.

وبشأن الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية الكريمة يقول الزّمخشرى[1] : «وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية، وفي أسلوبها قول القائل :

وجارة جسّاسٍ أبأنا بنابها ** كليباً، غَلَتْ نابٌ كليبٌ بَواؤها

وفي فحوى هذا الفعل دليلٌ على التّعجّب من غير لفظ التّعجّب. ألا ترى أنّ المعنى ما أشدّ استكبارهم وما أكبر عتوّهم وما أغلى ناباً بواؤها كليب».

وإذا كان الرّدّ على اقتراح نزول الكنز إليه ﷺ أو أن تكون له عليه الصّلاة

---

(١) الكشّاف ٢/ ٤٠٥.

والسّلام حديقةٌ يأكل منها قد تلاه حديثٌ مستفيضٌ عن كفّار مكّة الّذين كذّبوا بالسّاعة فإنّا نصادف هنا الشّيء ذاته حتّى نهاية آيات القسم.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

لا بُشْرَى : البُشْرَى والبِشارة : الخبر السّارّ [١].

ويقولون حِجْراً محجورا : الحاء والجيم والرّاء أصلٌ واحدٌ مطّرد، وهو المنع والإحاطة على الشّيء[٢] والحَجَر : الجوهر الصُّلب المعروف وجمعه أحجار وحجارة[٣] وأحسب أنّ الباب كلَّه محمولٌ عليه ومأخوذٌ منه، لشدّته وصلابته[٤] والحَجْر والحِجْر والحُجْر والمَحْجِر، كلّ ذلك الحرام، والكسر أفصح[٥] قال الأزهري : يقال هم في حجر فلان (بكسر الحاء وفتحها) أي في كنفه ومَنَعته ومَنْعه، كلّه واحد[٦] ابن سيده : الحَجْر المنع. حجر عليه يَحْجُرُ حَجْراً وحُجْراً وحِجْراً وحُجْراناً وحِجْراناً منع منه. ولا حُجْر عنه أي لا دفع ولا منع. والعرب تقول عند الأمر تنكره : حُجْراً له، بالضّمّ، أي دفعاً[٧] والحَجْر والتّحجير أن يُجْعَلَ حول المكان حجارة. يقال : حَجَرْته حَجْراً فهو محجور، وحجّرته تحجيراً فهو مُحَجَّر. وسمّي ما أحيط به الحجارة حِجْراً، وبه سُمِّي حِجْر الكعبة وديار ثمود[٨] وكلّ ما حَجَرْتَه مِنْ حائط فهو

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حجر» ١/ ٦١.
(٢) معجم مقاييس اللّغة «حجر» ٢/ ١٣٨.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حجر» ١/ ١٤٢.
(٤) معجم مقاييس اللّغة «حجر» ٢/ ١٣٨.
(٥) لسان العرب : «حجر».
(٦) لسان العرب : «حجر».
(٧) لسان العرب : «حجر».
(٨) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حجر» ١/ ١٤٢.

حِجْر[1] وحَجْر الإنسان وحِجْره، بالفتح والكسر : حِضْنُه وثوبه[2] ويقال : حَجَر الحاكم على السَّفيه حَجْراً، وذلك منعه إيّاه من التّصرّف في ماله. والعَقْل يُسَمّى حِجْراً لأنّه يمنع من إتيان ما لا ينبغى، كما سمّي عقلاً تشبيهاً بالعِقال. والحِجْر : الفرس الأنثى وهي تُصان ويضنّ بها[3] ومَحْجِر العين : ما يدور بها، وهو الّذى يظهر من النّقاب[4] ومن البُرْقع[5] وقيل هو ما دار بالعين من العظم الّذى في أسفل الجِفن[6] والحِجْر : الممنوع منه بتحريمه[7] قال تعالى[8] : ﴿وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ﴾ والحِجْر : الحرام. وكان الرّجل يلقى الرّجل يخافه في الأشهر الحرم فيقول : حِجْرا، أي حراما. ومعناه : حرامٌ عليك أن تنالنى بمكروه، فإذا كان يوم القيامة رأى المشركون ملائكة العذاب، فيقولون : ﴿حِجْراً محجورا﴾ فظنّوا أنّ ذلك ينفعهم في الآخرة كما كان ينفعهم في الدّنيا[9] اللّيث : كان الرّجل في الجاهليّة يلقى الرّجل يخافه في الشّهر الحرام فيقول : حِجْراً محجورا، أي حرامٌ محرّمٌ عليك في هذا الشّهر فلا يبدؤه منه شرّ. قال فإذا كان يوم القيامة ورأى المشركون ملائكة العذاب قالوا : حِجْراً محجوراً، وظنّوا أنّ ذلك ينفعهم كفعلهم في الدّنيا[10] قال تعالى[11] : ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجورا﴾ أي منعاً

---

(١) لسان العرب : «حجر».

(٢) لسان العرب : «حجر». وفى المعجم الوسيط : «حجر» : «وما بين يدي الإنسان من ثوبه».

(٣) انظر معجم مقاييس اللّغة : «حجر» ٢/ ١٣٨.

(٤) عجم مقاييس اللّغة : «حجر» ٢/ ١٣٨.

(٥) لسان العرب : «حجر».

(٦) لسان العرب : «حجر».

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حجر» ١/ ١٤٢.

(٨) سورة الأنعام ١٣٨.

(٩) معجم مقاييس اللّغة : «حجر» ٢/ ١٣٩.

(١٠) لسان العرب : «حجر».

(١١) سورة الفرقان ٥٣.

لا سبيل إلى رفعه ودفعه[1] وتُصُوِّر من الحَجَر، وهو الجوهر المعروف، دورانه فقيل : حَجَّر القمر إذا صار حوله دائرة[2] والحُجْرة من البيوت : معروفةٌ لمنعها المال[3] قال سيبويه : ويقول الرّجل للرّجل أتفعل كذا وكذا يا فلان؟ فيقول : حُجْراً أي ستراً وبراءة من هذا الأمر، وهو راجعٌ إلى معنى التّحريم والحُرْمة[4] وبشأن القول في الآية الكريمة : ﴿حجراً محجورا﴾ يقول الزّمخشرى[5] : «ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرّفة المنصوبة بأفعالٍ متروكٍ إظهارها نحو معاذَ الله وقِعْدكَ الله وعَمْرَكَ الله[6] وهذه كلمةٌ كانوا يتكلّمون بها عند لقاء عدوٍّ موتورٍ أو هجوم نازلةٍ أو نحو ذلك، يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه : ويقول الرّجل للرّجل أتفعل كذا وكذا فيقول : حجرا. وهي مِنْ حجره إذا منعه، لأنّ المستعيذ طالبٌ من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه، فكان المعنى : أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً. . . فإن قلت : فإذ قد ثبت أنّه من باب المصادر فما معنى وصفه بمحجورا؟ قلت : جاءت هذه الصّفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا : ذيلٌ ذائل، والذّيل الهوان، وموتٌ مائت»[7].

إنّ الّذين لا يرجون لقاء الله تعالى ولا يعملون ليوم القيامة يستهزئون في

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حجر١/ ١٤٢.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حجر١/ ١٤٣ ومعجم مقاييس اللغة : «حجر» ٢/ ١٣٨.

(٣) لسان العرب : «حجر» وكذلك جاء فيه : «وهو ما حَوَّطوا عليه» أي النّاس.

(٤) لسان العرب : «حجر».

(٥) الكشاف ٢/ ٤٠٥.

(٦) معاذ الله أي عياذاً بالله. قال الله عز وجلّ : ﴿معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي نعوذ بالله معاذاً أن نأخذ غير الجانى بجنايته، نصبه على المصدر الّذى أريد به الفعل. لسان العرب : «عوذ» وجاء في القاموس : «قعد» : وقِعْدك الله بالكسر استعطافٌ لا قَسَم... وهو مصدرٌ واقعٌ موقع الفعل بمنزلة عَمْرَكَ الله ومعناه : سألت الله تعميرك. وكذلك قِعْدك الله، تقديره قَعَدْتك الله، أى سألت الله حفظك، من قوله تعالى : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ سورة ق ١٧.

(٧) انظر البحر المحيط ٦/ ٤٩٢و٤٩٣.

الحياة الدّنيا بالملائكة وبعذاب الآخرة. وإنّ هؤلاء الكافرين المستهزئين سوف يرون يوم القيامة ملائكة العذاب الّذين يقولون لأولئك المجرمين لا بشارة بالخير لكم في هذا اليوم العظيم المجموع له النّاس المشهود. وفي المقابل يجرى على ألسنة الكافرين الحريصين على صرف السّوء عنهم ما كان يجرى على ألسنتهم في الحياة الدّنيا رغبةً في صرف السّوء ودفع الشّرّ. وكأنّ هذا الكتاب العزيز الّذى نزل بلسان عربيّ مبين يستعير في القول على ألسنة المجرمين : ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ ما كان يجرى على ألسنة العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم حينما تنزل بالواحد منهم نازلة وحينما يريد أن يدفع الأذى عنه ويدرأ الخطر.

والحقيقة أنّ في سورة الفرقان الكريمة العديد من المواضع الّتى جاء فيها استعارة بعض الأقوال وفق طرائق العرب في الكلام. وسوف يتبيّن كلّ ذلك في موضعه بإذن الله تعالى[1] وإذا كان هذا القول يستعار على ألسنة البشر، فكأنه يستعار في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين على لسان البحرين، العذب الفرات الحلو، والملح الأجاج المرّ، وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وهو الّذى مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجوراً﴾ والمعنى : والله تعالى هو الّذى أرسل البحرين العذب الفرات الحلو والمِلْح الأُجاج المرّ وجعل بينهما حاجزاً يمنع كلّ واحد منهما من إفساد الآخر، وجعل كلّ واحدٍ منهما حراماً محرَّماً على صاحبه أن يغيِّره ويفسده[2].

والحقيقة أنّنا بشأن قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ بصدد مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم له علاقة بتطوّر الدّلالة اللّغويّة من ناحية، وباستعارة القرآن الكريم بعض الأقوال الّتى تجرى على ألسنة العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ويستعملونها في مواقف معيّنة من ناحيةٍ أخرى، ومِنْ هذه الأقوال : ﴿حجراً محجوراً﴾ وسبق أن اقتبسنا الكثير من النّصوص المسعفة لنا،

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ الآيات الكريمات ٢٣و٥٣و٧٤.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٩/ ١٦.

بإذن الله تعالى، على تبيين هذه الأمور.

ومن البيّن أنّنا بصدد لفظتين مشتقّتين من أصلٍ لغويّ واحد : ﴿ حجراً محجوراً﴾ وهما حجراً، بمعنى حراماً ومنعاً ومعاذا، ومحجوراً، تأكيداً للحرمة والمنع والاستعاذة.

ونحن نودّ أن نتصوّر رحلة ما يعنينا من ألفاظ هذه المادّة اللّغويّة حتّى كان القول : ﴿حجراً محجوراً﴾.

تبيّن أنّ الأصل اللّغويّ : «حجر» تدور معانى الألفاظ المشتقّة منه على المنع والإحاطة على الشّيء، وتبيّن كذلك أنّ الحَجَرَ الّذى يتحقّق فيه المنع والإحاطة على الشّيء في مجال المحسوسات بأكثر من غيره، كأنّ الباب كلّه محمولٌ عليه ومأخوذٌ منه كما يقول ابن فارس.

ونستطيع أن نفهم أنّ الحَجَر يفيد معنى المنع قبل معنى الإحاطة، وأنّ مجموعةً من المحسوسات أفادت هذا المعنى أو ذاك قبل المعنويّات.

ومن الألفاظ الّتى أفادت في المحسوسات المنع والقوّة أوّلاً، الإحاطة والاستدارة آخراً، الحُجْرة لمنعها المال، والحِجْر وهو المكان الّذى حوله حجارة. أمّا عمليّة الحجر والتّحجير، بأن يجعل حول المكان حجارة، فإنها يقال بشأنها : حَجَرْته حَجْراً فهو محجور، وحجّرته تحجيراً فهو محجَّر. والمِحْجر، موضع الحَجْر والمنع. ومَحْجِر العين ما أحاط بها. وحِجْر الإنسان حِضْنه. وتحجير القمر إذا صار حوله دائرة.

ومن الألفاظ الّتى أفادت في المعنويّات المنع والمَنَعة الحَجْر على السّفيه، بمعنى منعه من التّصرّف في ماله، والحِجر بمعنى العقل لمنعه إتيان ما لا ينبغى، والحِجْر الفرس الأنثى لأنّها تصان ويضنّ بها.

ومن أسباب إفادة الألفاظ المشتقّة من الأصل اللّغويّ: «حَجَر» الإحاطة والاستدارة انحناء حدود الأمكنة الّتى تحاط بالحجارة والتواء جوانبها في القديم غالباً، هذا إلى كون الاستدارة ذاتها مصدر قوّةٍ للبناء على نحو ما يلاَحظ مثلاً في

السّدود والعقود.

وسبق أن تبيّنّا أنّ اللّفظة المثلّثة الحاء حِجْر وحَجْر وحُجْر، من أكثر الألفاظ المشتقة من الأصل اللّغوي : «حجر» معاني واستعمالاً. وبشأن القول: ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ جاء في البحر المحيط[1]: «وقرأ أبو رجاء والحسن والضّحّاك : ﴿حُجْرا﴾ بضمّ الحاء» وبشأن الحُجْر بضمّ الحاء جاء في لسان العرب[2] : «والعرب تقول عند الأمر تنكره : حُجْراً له، بالضّمّ، أي دفعاً» وسبق أن مر بنا قول ابن سيده «الحَجْر المنع. حجر عليه يَحْجُر حَجْراً وحُجراً وحِجراً... منع منه»[3] وقد استعمل العرب حتّى وقت نزول القرآن الكريم القول : «حِجْراً» في معنى الاستعاذة ودفع الضّرّ وصرف الشّرّ. وتتأكّد هذه المعاني حينما ينضمّ القول : «محجورا» إلى القول : «حجرا» على نحو ما جاء على ألسنة الكافرين : ﴿حجراً محجورا﴾ فكما كان العرب يريدون بالقول : «حجراً محجورا» أن يُحْجَر على الأذى بشدّة، ويصرف الضّرّ بعنف، ويصدّ العدوان بقوّة، أو هكذا يتمنّون، فإنّ هؤلاء المشركين أنفسهم يجرى على ألسنتهم يوم القيامة القول ذاته حينما يرون ملائكة العذاب. إنّهم يتمنّون أن يكون العذاب محجوراً عليه، مصروفاً ومردوداً عنهم. وأنّى لهم ذلك.

وهكذا نتبيّن أنّ القوّة والإحاطة اللّتين تتعلّقان بالكثير من مشتقّات الأصل اللّغويّ : «حجر» تتعلّقان كذلك بالقول على ألسنة الكافرين يوم القيامة : ﴿حجراً محجورا﴾ ومن ألطف ما يمكن الإيماء إليه أنّ هذا القول كما يجرى على ألسنة المشركين كأنّه يجرى على لساني البحرين العذب الفرات والملح الأجاج على نحو ما جاء في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين. قال عزّ من قائل : ﴿وهو الّذى مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجورا﴾

---

(١) ٦/ ٤٩٢.

(٢) «حجر».

(٣) لسان العرب : «حجر».

إنّ كلاً من الماءين الغـزيرين كأنّه يتمنى أن يكون طغيـان الماء الآخر وأذاه وعدوانه محـجوراً عليه ومـدفوعاً ومصـروفاً عنه. وبإذن الله تعـالى سيكون عن هذه الآية الكريمة حديثٌ أوسع في موضعه. والله المستعان.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

وقدمنا : عَمَدْنا[1]

فجعلناه هبـاءً : فجعلناه باطلاً لأنّهم لم يعملوه لله وإنّمـا عملوه للشّيطان. والهباء هو الّذى يرى كـهيئة الغبـار إذا دخل ضوء الشّمس من كوّة يحـسبه النّاظر غباراً ليس بشيءٍ يقبض عليه بالأيدى ولا تمسّه، ولا يرى ذلك في الظّل[2].

من المعروف أنّ ثمّة شرطين اثنين ينبغى توافـرهما في العمل كي يتفضّل الله تعالى بقبـوله. الشّرط الأوّل أن يكون صواباً بمقياس الإسـلام، والشّرط الآخر أن يكون خـالصاً لله تعـالى. فإذا اختلّ الـشّرطان أو أحدهمـا حبط العـمل. والآية الكريمة تتـحدّث عن الأعمـال الصّالحة الّـتى قام بها المشـركون والّتى هي صـالحةٌ بمقياس الإسلام كذلك. إنّ هذه الأعمال قـد أحبطها الله تعالى وأبطل ثوابها لأنّها فقدت شرط الإخلاص، فلم يرد المشركـون بتلك الأعمال وجه الله تعالى ولكنّهم أرداوا حُسن الأحدوثه وخلود الذّكـر. وإذا كانت الأعمال الصّالحة مـرفوضةً لأنّها فقدت شـرط الإخلاص فكيف بأعمـال الكافرين الّتى فقدت شـرط الصّواب. إنّ هذه الأعمال قد فقدت الشّرطين معاً فهي ألصق بالرّفض والإحباط.

والآية الكريمة تستـعمل جملة : ﴿وقدمنا﴾ وتستـعيرها. وهذا الاستـعمال ينبّه على عادة العرب حينما يريدون شيئـاً مهمّا، ويصمّمون على أمرٍ خطير. إنّهم

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣.

يقدمون إليه ويقبلون عليه. والآية الكريمة تنبّه إلى أنّ الأعمال الّتى قام بها الكافرون والّتى فقدت شرط الإخلاص هي الهدف من الإقبال عليها والقدوم إليها، وذلك بإحباطها، وإبطال ثوابها، وجعلها في عدم الانتفاع بها والحصول على ثوابها بمنزلة الهباء المنثور، والغبار المنتشر الّذى يبدو في ضوء الشمس من الكوّة فلا يمكن الإمساك به والانتفاع منه. إنّ الهباء لا ينتفع به فكيف بالمنثور منه.

وهكذا نكون في هذه الآية الكريمة أمام استعارة جملة : ﴿وقدمنا﴾ كما كنّا في الآية الكريمة السّابقة أمام استعارة القول : ﴿حجراً محجورا﴾، وكلا القولين يجريان على ألسنة العرب لأداء معنىً معيّن. وإنّ استعارة القرآن الكريم هذه الأقوال للمعانى المعيّنة ذاتها تأكيدٌ لمعنى القول : إنّ القرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيٍ مبين. إنّ القرآن الكريم لم يلو للّغة العربيّة عنقاً، ولم يرغمها على السّير في غير خطّها الّذى ارتضته، بل إنّ القرآن نهض بخصائص هذه اللّغة الشّريفة نهضةً بليغة لا تكاد تدركها الإبصار.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يومئذ : يوم القيامة[١].

خيرٌ مستقراً : وهو الموضع الّذى يستقرّون فيه من منازلهم في الجنّة من مستقرّ هؤلاء المشركين الّذين يفتخرون بأموالهم وما أوتوا من عرض هذه الدّنيا في الدّنيا[٢] والآخرة[٣].

وأحسن مقيلا : المقيل والقيلولة : الاستراحة نصف النّهار وإن لم يكن معها نوم[٤] وقد قال القوم قَيْلاً وقائلةً وقيلولةً ومَقالاً ومقيلا، الأخيرة عن سيبويه. والمقيل أيضاً: الموضع[٥].

بعد الحديث عن أصحاب النّار المكذّبين المستهزئين الّذين أحبط الله تعالى أعمالهم يتحوّل الحديث إلى المؤمنين أصحاب الجنّة. إنّ المتّقين أصحابَ الجنّة وأهلَها هم يوم القيامة خيرٌ موضعَ استقرار ومكان إقامة، وهم أحسن وقتاً وزمناً بقصد الرّاحة والاستمتاع.

إنّ ذكر المستقرّ، وهو موضع الاستقرار، رمزٌ لمطلق المكان، وإنّ ذكر المقيل، وهو زمان الاستراحة نصف النّهار وإن لم يكن معها نوم، رمزٌ لمطلق الزّمان. والمعروف أنّ ظلّ الجنّة دائم، فليس ثمّة شمسٌ أصلاً، ومن هنا كان ذكر المقيل رمزاً لمطلق الزّمن الحَسَن دائماً في حقّ المؤمنين أصحاب الجنّة.

وحينما نعلم أنّ المقيل هو الاستراحة نصف النّهار وقت القائلة واشتداد الحرّ في الظّهيرة، وحينما نعلم أنّ هذا الوقت أشدُّ الأوقات حرارةً في مكّة المكرّمة،

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٤.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٤.

(٤) لسان العرب : «قيل».

(٥) لسان العرب : «قيل».

ندرك أنّ ذكْر المقيل دليلاً على مطلق الزّمن الحسن في الجنّة الّتى لا شمس فيها أصلاً، إنّما يراد به تقريب المعانى لأهل مكّة بخاصّة، في هذه السّورة الكريمة المكّيّة، كما يراد به وراء ذلك تقريب المعانى للعرب بعامّة، الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ولغتهم، وهم الّذين استقرّ في نفوسهم شدّة الحرّ في القائلة، وشدّة الحاجة للرّاحة وقت القيلولة.

وهكذا تستعمل الآية الكريمة لفظة المقيل وفق استعمال العرب لها، وتستعير هذه اللّفظة دليلاً على مطلق الزّمن الحَسَنِ في الجنّة في حقّ المؤمنين، تماماً كما اتّخذت لفظة المستقرّ دليلاً على مطلق المكان الحسن في الجنّة.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

ويوم : واذكر يوم[1].

بالغمام : الغمام غيمٌ أبيض[2] والغمّ سَتر الشّيء، ومنه الغمام لكونه ساتراً لضوء الشّمس[3] والمعنى فيما ذكروا تشقّق السّماء عن الغمام الأبيض ثمّ تنزل فيه الملائكة. وعلى وعن والباء في هذا الموضع بمعنىً واحد، لأنّ العرب تقول : رميت عن القوس وبالقوس وعلى القوس، يراد به معنىً واحد[4].

---

(١) الجلالين.

(٢) انظر الجلالين وتفسير الطّبرى ١٩/ ٥ ومعانى القرآن للفرّاء ٢/ ٢٦٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غم» ٢/ ٤٧٣.

(٤) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٢٦٧ وانظر تفسير الطّبرى ١٩/ ٥.

عسيرا : صعباً شديدا[1].

في يوم القيامة تتبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات غير السّماوات. قال عزّ من قائل[2] : ﴿يوم تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض والسّماوات وبرزوا لله الواحد القهّار﴾ ويمكن أن تكون الباء في القول : ﴿بالغمام﴾ على بابها ويمكن أن تكون بمعنى عن. وقد بيّن الزّمخشريّ في الكشّاف الفرق بين الباء وعن. يقول[3] : ولمّا كان انشقاق السّماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنّه الّذى تشقّق به السّماء كما تقول : شُقّ السّنام بالشّفرة وانشقّ بها. ونظيره قوله تعالى[4] : ﴿ السّماء منفطرٌ به﴾ فإن قلت : أيّ فرقٍ بين قولك انشقّت الأرض بالنّبات وانشقّت عن النّبات؟ قلت : معنى انشقّت به أنّ الله شقّها بطلوعه فانشقّت به، ومعنى انشقّت عنه أنّ التّربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى أنّ السّماء تنفتح بغمامٍ يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد».

في يوم القيامة المُلْكُ الحقّ الثّابت لله تعالى الرّحمن الرّحيم. وكان يوم القيامة شديد الصّعوبة على الكافرين، وفي المقابل هو شديد اليسر على المؤمنين بفضلٍ من الله تعالى ونعمة.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦.

(٢) سورة إبراهيم ٤٨.

(٣) الكشّاف ٢/ ٤٠٦.

(٤) سورة المزّمّل ١٨ والمعنى أنّ السّماء ذات انفطارٍ وانشقاق بيوم القيامة الّذى يجعل الولدان لشدّة هوله شيباً ونواصي الأطفال بيضا.

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

سبيلا : طريقاً إلى النّجاة من عذاب الله[1].

يا ويلتى : يا : أداة نداء وتحسّر. ويلتا : منادى متحسَّر به من نوع المضاف منصوب وعلامة النّصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الألف. والألف المنقلبة عن ياء مضافٌ إليه[2].

فلاناً : فلانٌ وفلانةٌ كنايتان عن الإنسان، والفلان والفلانة كنايتان عن الحيوانات[3].

الذِّكْر : القرآن[4].

خذولا : مسلماً لما ينزل به من البلاء غير منقذه منه ولا منجيه[5].

وفي يوم القيامة يعضّ الظّالم على يديه الاثنتين ولا يكتفى بعضّ إصبع النّدم دليلاً على إدراكه بعد فوات الأوان الخطأ الشّنيع الّذى ارتكبه في جنب الله تعالى بإشراكه جلّ وعلا معه سواه. ويقول المشرك : يا ليتنى اتّخذت مع الرّسول

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٨٦.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فلن» ٢/ ٤٩٨.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧.

محمّد ﷺ طريقاً من الهدى والرّشاد موصلاً إلى جنّات النّعيم. يا ويلتى ويا هلاكى، ليتنى لم أتخذ في الحياة الدّنيا ذلك المشرك المنحرف عن سواء السّبيل خليلاً لى، آخذ برأيه الضّالّ، وأسير في طريقه غير السّويّ. حقّاً لقد أضلّنى عن الذّكر وصرفنى عن القرآن الكريم الّذى جاء على لسان المصطفى ﷺ الّذى رتّله ترتيلاً ودعا إليه. لقد خذلنى كلٌّ من الخليل الضّالّ المضلّ، والشّيطان الرّجيم الغَرور، الخذول لأوليائه، بشأن كلّ مصيبةٍ يوقعهم فيها، وهاويةٍ يجرّهم إليها.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

في يوم القيامة يجأر الرّسول ﷺ إلى ربّه عزّ وجلّ بمُرّ الشكوى لأنّ قومه عليه الصّلاة والسّلام اتّخذوا هذا القرآن الكريم مهجوراً، وهذا الكتاب وراءهم ظِهْريّا.

وحينما يكون قومُ المصطفى ﷺ قبيلةَ قريش وأهلَ مكّة، يكون هجرهم للقرآن الكريم بمعنى الإعراض عنه أصلاً، وعدم الاستعداد لسماعه أساساً، واتّهامهم للقرآن الكريم بأنه شعرٌ وسحرٌ وما إلى ذلك.

ولمّا كانت العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، فمعنى ذلك أنّ القوم الّذين هجروا القرآن الكريم هم الّذين تصحّ في حقّهم صفة الهجر بشأن القرآن الكريم من أفراد الأمّة المحمّديّة. إنّ القرآن الكريم ينبغى أن يرتّل ترتيلاً، وأن تُتَدَبَّر معانيه، وأن يُعْمَلَ بكلّ تعاليمه. إنّ ثمّة تلاوةً وتفسيراً وعملاً. وإنّ الّذى لم يهجر القرآن الكريم هو الّذى يعمل به. والعمل يفترض التّلاوة والفهم.

أمّا من لم يقرأ القرآن فإنّه أبعد عن فهمه والعمل به. وإنّ من لم يفهم القرآن الكريم أبعد عن العمل به.

وهكذا يكون هجر القرآن الكريم سوءاً تتفاوت درجاته. وأسوأ الهاجرين من لم يقرأ القرآن ولم يفهمه ولم يعمل به، ويليه من يقرؤه ولا يتدبّره ولا يعمل به، ويليه من يقرؤه ويتدبّره ولا يعمل به. نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وأن يجعلنا من المتدبّرين لمعانيه، العاملين بهديه، آمين.

وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدواً من المجرمين : وكما جعلنا لك يا محمّد أعداءً من مشركي قومك كذلك جعلنا لكلّ من نبّأناه من قبلك عدواً من مشركي قومه، فلم تخصّص بذلك من بينهم(١).

وكفى بربّك هادياً ونصيرا : وكفاك يا محمّد بربّك هادياً يهديك إلى الحقّ ويبصّرك الرّشد، وناصراً لك على أعدائك(٢).

وكما جعلنا لك أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم عدواً من المجرمين المشركين أعداء الله تعالى، كذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ من النّبيّين السّابقين. فلست يا محمّد وحدك الّذى صادف العنت والمشقّة من قومه الكافرين. وكفاك يا محمّد بربّك جلّ وعلا هادياً يهديك إلى سواء السّبيل، ونصيراً ينصرك على أعدائك.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧.

(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ٨.

(٢)

(الحكمة من نزول القرآن الكريم منجَّماً وللكافرين عذابٌ مقيم)

الآيات (٣٢ - ٣٤)

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

لولا : هلاّ [١].

نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة : كما نُزّلت الكتب قبله، كالتّوراة والإنجيل والزّبور وغيرها من الكتب الإلهيّة[٢].

ورتّلناه ترتيلا : التّرتيل إرسال الكلمة من الفم بسهولةٍ واستقامة[٣] يقول : وشيئاً بعد شيء علّمناكه حتّى تحفظه[٤] والتّرتيل في القراءة التّرسّل والتّثبّت[٥] ﴿ورتّلناه ترتيلا﴾ نزّلناه تنزيلا[٦] والتّرتيل : التّبيين والتّفسير[٧].

شاء الله تعالى أن ينزّل القرآن الكريم منجّماً ومفرّقاً على النّبيّ ﷺ في ثلاثٍ وعشرين سنةً، خلافاً للكتب السّماويّة السّابقة الّتى نزّلت جملةً واحدةً كتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى، عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. إنّ مشركى مكّة المتعنّتين والّذين لا يكفّون عن اعتراضاتهم واقتراحاتهم يقولون في إنكار : هلاّ نُزّل القرآن على محمّد جملةً واحدةً كالكتب السّماويّة السّابقة. وإنّ الرّبّ البَرَّ الرّحيم يبيّن الحكمة من إنزال القرآن مفرّقاً حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال. إنّ ربّ العزّة والجلال نزّل القرآن

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١١٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رتل» ١/ ٢٤٩.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ٨.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨.

(٦) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٢٦٨.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨.